

المسكوت عنه في الخطاب الشعري الصوفي لدى أدونيس

What is left unsaid in the Sufi poetic discourse of Adonis.

أ.د/ سعيد بكير¹*

كلية الآداب والفنون - جامعة الشلف (الجزائر)

saidbakir2@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024 / 12 / 13 - تاريخ القبول: 2024 / 12 / 26 - تاريخ النشر: 2024 / 12 / 31

ملخص:

تتنوع الدلالات والمعاني في الخطاب الشعري لدى أدونيس، نظرًا لميله العميق إلى استعمال لغة الرمز والإشارة، وإلى التلميح دون التصريح، وهذا ما يتولد عنه كثرة التأويلات والقراءات في خطابه عامة، وخطابه الصوفي خاصة، الذي يحتوي على كثير من المعاني المسكوت عنها. ولهذا العرض، وقصد تبين بعض الدلالات المسكوت عنها في شعر أدونيس، اخترت العنوان الآتي: " المسكوت عنه في الخطاب الشعري الصوفي لدى أدونيس"، سعيًا منا لإبراز وتوضيح المفاهيم أو تقريبها للقراء، والوصول بهم إلى فهم صحيح عميق يتعدى السطحية الظاهرة على لغة الخطاب.

الكلمات المفتاحية: المسكوت عنه، الخطاب الشعري، الصوفية، أدونيس.

Abstract:

The connotations and meanings in Adonis' poetic discourse vary, due to his deep tendency to use the language of symbols and signs,

^{*} المؤلف المرسل: أ.د. سعيد بكير

and to allude without declaring, and this is what results in a large number of interpretations and readings in his speech in general, and his Sufi speech in particular, which contains many unspoken meanings. For this presentation, and with the intention of clarifying some of the unspoken connotations in Adonis's poetry, I chose the following title: "The Unspoken in Adonis' Sufi Poetic Discourse," in an effort to highlight and clarify the concepts or bring them closer to the readers, and to bring them to a correct, deep understanding that goes beyond the apparent superficiality of the language of the discourse.

Keywords : the unspoken, poetic discourse, Sufism, Adonis

1 . مقدمة:

يحتوي الخطاب الشعري لدى أدونيس خاصة الصوفي منه الكثير من المعاني المسكوت عنها، وهي معانٍ باطنية إيحائية لا تقرأ إلّا من خلال فك الرموز للإجلاء الغموض الذي يعتريها، وهذا الفعل لا يتأتى إلّا لقارئ يمتلك الأدوات الكافية لفعل القراءة، ولديه الخبرة الواسعة في الوقوف على كل دقائق الكتابة الشعرية الأدونيسية.

2 . رسالة الشعر عند أدونيس:

يمثل أدونيس الشاعر العربي الأكثر تمرّدًا وثوريّةً في ساحة الشعر العربي، إنّه يمثل عالمًا متغيّرًا متحولًا، ولا شك في أنّ قارئه سيقف عاجزًا عن الوصول إلى معاني شعره، لأنّه مليء بالمفاجآت والتغريب، حامل الرسائل كثيرة، إنّه كائن يتجدد بتجدد الحالات.

وإذا كان، لكل شاعر رسالة يبلّغها من وراء شعره، فشعر أدونيس ليس مجرد رصف للكلمات، وإثما هو في تعبير دائم عن الغايات والأهداف الساميّة الظاهرة والمسكوت عنها، "فأمام القارئ المنتج هذا مهمّة صعبة، هي الكشف عن المعنى المستور المتولد من علاقات النص وتفاعلها داخل شبكة معقّدة ومنظّمة"¹.

إذن، فمادام القارئ، لا يقف عند السطح، ويتصل بالغور، فرسالة الشعر، لا تقف عند حدود الهزّة والأرحية، التي يثبها الشعر، بل تمتد إلى أبعد من ذلك في رفع الغطاء عين الأعين، وطرح المعمم والسائد، كما نطرح لباساً مهترئاً، ذلك جزء عظيم من رسالة الشاعر الجديد، رسالة شاعر التجربة²، إنّ مهمّة الشاعر ورسالته عظيمة، تتمثل في الإبداع وخلق أسلوب جديد يساير العصر ومتطلباته، إنّها لغة الشعر الذي "يجيد بالكلمات عما وضعت له أصلاً، عكس النثر الذي يستعمل اللغة العادية"³.

فإذا كانت لغة النثر عادية مفهومة، فإنّ لغة الشعر، لغة إيماء وإشارة ورمز، ما يستوجب على الناقد الاطلاع الواسع لولوج عالم الشاعر: "ورسالة الشعر، إذن هي أن يفتح باباً على العالم الآخر الخفي، وأن يحرك في الإنسان طاقاته التي تتجاوز المحسوس، طاقاته الخفيّة، والأكثر غموضاً"⁴. يظهر لنا جلياً أنّ رسالة الشعر عظيمة، ما دام الشعر عظيماً، والنقد مكلف بقراءة انزياحات اللغة وحاول بلوغ العالم الخفي، والوجه الآخر للشاعر، ولعلّ "الجوهري في الشعر، هو الكشف عن علاقات جديدة وإقامة علاقات جديدة دائمة، وخصوصيّة الشعر، هي في هذه العمودية، يفتح دائماً أمام القارئ عالماً من المتطابقات أكثر غنى، ويثير فيه وحوله ما يجعله يكشف الإنسان والأشياء في حركة أخرى"⁵.

إنّنا حين نقرأ الشعر، نبدأ من حيث انتهى الشاعر، ونطبّق القراءة على مستوى المحور العمودي، حتى يتسنى لنا الكشف عن عالم الشاعر الذي تلتقي فيه المتناقضات، فالنص الشعري لا يوضح ولا يضيء فيتعلق ويرaug ويمارس الإعلان والاختفاء، بمختلف أنواع التنكر⁶.

وهنا يعمل القارئ على تفكيك شفرات النص، ويحاول الوصول إلى المعاني المسكوت عنها؛ المختفية وراء لغة الشاعر، وهنا كذلك: "نشطب على الوظيفة الإعلامية في الشعر، وعلى كل ما يجعل منه أداة لغايات آنية ونفعيّة معتبراً أنّ مهمّة الشعر ترتبط بالبحث عن المجهول، وبالتحديد الرؤية إلى الوجود، وهو ما يحققه الرمز والإشارة والمجاز، وغيرها من العناصر التي تكشف غموض النص، وتحيته لامتلاك شعريته حتى من خارج الوزن والقافية"⁷.

لا يمكن بحسب أدونيس حصر رسالة الشعر في الإعلام والتوصيل فحسب، بل تتعداه إلى أبعد من ذلك، والشعر في تمرده لا يجعل من اللغة مجرد أداة يستعين بها على الهدم، بل يجعلها الغاية، ويبعث فيها حياة وحرارة ويرغمها على الإشعاع، حتى تنير درب القارئ، ولهذا أصبح الشعر غامضاً، واستوجب على المتلقي السعي وراء لغته فيتوسلها لكشف الدلالات المشتتة: "إنّ الشعر من خلال هذه الممارسة التأويلية يصبح وسيلة لانفتاح العالم، هذا الانفتاح يتجسد من خلال اللغة التي تستجمع التوتر، الذي يشكله التعارض بين الظهور والاختفاء"⁸.

لذلك يصحّ القول: إنّ على الشاعر الاختفاء وراء لغته، وعلى القارئ إظهار معانيها المتخفية، فالشعر المعاصر، وبالضبط مع أدونيس، أصبح يسأل ولا يجيب يومئ ولا يصرح، يأسر ولا يؤسر، إنّ كون الشعر سؤالاً، يعني أنّه يترك أفق البحث والمعرفة مفتوحاً، وأنّه لا يقدم يقيناً فالسؤال هو الفكر، ... السؤال بتعبير أصح هو الذي يدفع إلى مزيد من الفكر"⁹، وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار القصيدة المعاصرة أفكاراً تمر من طرف الشعراء.

3. غموض الخطاب الشعري الأدونيسي:

يعد الغموض من الظواهر الشائعة اللصيقة بالشعر العربي الحديث والمعاصر، وهو من الوسائل المهمّة، التي لجأ إليها الشاعر لإثراء لغته وإبراز جمالية صوره الشعريّة، نشأ نتيجة لتغيّر المفاهيم الجديدة المتعلقة بالشعر والشعريّة، حيث أصبحت القصيدة فضاءً للإيحاءات والإشارات

وتلميحات الشاعر، فاكتست بالغموض، وأصبحت معروفة به، "وهكذا جاءت معانيه مغايرة للمعاني المألوفة، وجاءت صوره وتعاييره مغايرة للمألوف أيضاً، ومن هنا غموضه"¹⁰.

إنّ الغموض هو ذلك الغطاء الذي ترتديه القصيدة الجديدة، فلا تسلم نفسها للمتلقي، وهو صفة قديمة في الشعر، وظّفه أبو تمام وغيره من الشعراء، وهو نقيض الإبهام، وصفة ملازمة للإبداع، "وهكذا تصبح القصيدة البسيطة مرادفة لضحالة ثقافة الشاعر، أما القصيدة الحداثيّة الغامضة الماسية التي تغري شهوة القارئ، تجسّد حيّ لعمق ثقافة قائلها"¹¹.

من هذا المنطلق، يفترض التعامل مع الظاهرة الغموض على أساس أنّها مدخل من مداخل الشعريّة، يتخطى ويتجاوز الشاعر من خلالها لغة المألوف، وهذا الغموض غموض غير معتم، بل شفاف فالشاعر غامض كالмас.¹²

وعلى العموم فإنّ الغرابة المتولدة عن الغموض، هي التي تقوي جماليته، لأنّ الإنسان ميّال إلى الغريب الجميل، وأنّه صنعة لا تضير البيان بل تحقّقه حتى وإن عجز القارئ عن بلوغ مقاصد القصيدة، "لأنه ألف طريقة معينة في الفهم والتذوق، وشكلاً معيناً في التعبير ثم يفاجأ بشكل جديد، وإذّاك يختلط عليه الأمر"¹³، وهذه دعوة صريحة من أدونيس إلى القارئ، إلى استثمار الغموض، إلى الوصول إلى الدلالات الخفيّة المتواجدة خلف لغة الشاعر والمسترة بخياله ورموزه و إيحاءاته، إذ لا وجود للقصيدة من دون هذه الأدوات ؛ فالشعرية لا تتحقق مع البسيط بل تتحقق بالعميق المكثف، وهنا وجب على القارئ الارتفاع إلى مستوى أعلى لكشف المسكوت في رمزيّة الشاعر.

4. المسكوت عنه في الخطاب الشعري الصوفي عند أدونيس.

يخفي الخطاب الشعري لدى أدونيس منذ ولادته الأولى مع قصيدة الفراغ إلى آخر مرحلة من مراحل كتاباته الشعريّة (المرحلة الصوفية)، دلالات عميقة وإيحائية، حملتها قصائده الجديدة بمفاهيم

جديدة حول الإنسان والعالم معًا، مفاهيم تجسّدت ونضجت مبكرا عند الشاعر منذ ظهور ديوانه "أغاني مهيار الدمشقي سنة 1961".

ومنذ هذا التاريخ، يمكن القول إنّ مشروعًا جديدًا قد بزغ في ساحة شعر العربي، حيث تميز هذا المشروع، وفي كل مراحله، وبالأخص المرحلة الصوفية بلغة رمزية إشارية، لا تقول الظاهر بل تعمل دومًا على التخفي والانفتاح وارتداد المجهول، من خلال استعماله لمصطلحات الصوفية، فتولد عن ذلك تعدد للقراءات ما يظهر للقارئ بعض المعاني في حين تغيب عنه معان أخرى، وهي دلالات مسكوت عنها لا تستجيب لكل قارئ، ولا تظهر إلّا بمعين فتلك لغة تولدت عن الحرية، والبعد عن العقل والاقتراب من المجاز، ومن هذه الدلالات:

قوله في قصيدة (وحدة):

وَحَدَّ يِ الْكَوْنِ فَأَجْفَاتِهِ.

تلبس أحفاني.

وَحَدَّ يِ الْكَوْنِ بِحَرْبِي.

فَأَيْنَا يَتَكَرَّ الثَّانِي¹⁴.

في هذه الأسطر الشعرية، اتجه خطاب أدونيس إلى استعمال الخطاب بلغة الفرد وإضمار الجماعة، وهذه سمة من صميم ما ذهبت إليه التجربة الصوفية، فالصوفي ميّال إلى العزلة والغربة هروباً من كل الشوائب، كما استعان الشاعر بألفاظ مساعدة كالوحدة والحرية، وهذا دليل على توسله المصطلح الصوفي على الرغم من تحوّل دلالات الألفاظ لحساب ممارسته النصيّة.

وقوله أيضاً في قصيدة (رياح الجنون):

جِئْتَكُمْ فلبست الجريمة.

وَحَمَلْتُ إِلَيْكُمْ رِياحَ الْجَنُونِ¹⁵.

وقوله:

والجنون الذي قادني لا يزال أمير الجنون¹⁶.

إنّ الدلالة الظاهرة من خلال هذه الأسطر، تتمثل في وصفه لحالة نفسية أصيب بها الشاعر، وهي الجنون، ولكنّ الدلالة الخفية، وهي أنّ جنونه الذي تكرر في عديد قصائده (رياح الجنون، الاجتياح، أول الجنون) كان جنوناً إرادياً مفتعلاً، وليس فعلياً حقيقياً، فالصوفي يعشق التيه والضياح. وأمّا في (كتاب التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار) برزت الصوفية بشكل جليّ، وربطها بالأصول العربية الإسلامية، وفي هذا الديوان راهن على "الرؤيا"، بوصفها من عناصر الشعرية في التجربة الصوفية¹⁷، فهجرة أدونيس في هذا الديوان هجرة صوفية مفتعلة من العالم الخارجي إلى الجوانيّ. مربوطة بالتحوّل؛ لكونهما تخلصان إلى معنى واحد وهو السفر.

والصفة الثانية "تأنيث المكان"، وهي صفة مجسّدة في تماهي الجسد بالمكان، ففي قصيدة

"فصل الربيع" يخاطب دمشق فيقول:

يا امرأة الرفض بلا يقين.

يا امرأة القبول.

يا امرأة الضوضاء والذهول.

يا امرأة مليئة العروق بالغابات والوصول.

أيتها العارية الضائعة الفخذين يا دمشق¹⁸.

يصعب تطويق مفاهيم الخطاب الصوفي، فاللغة تتحول عن مدلولاتها المألوفة، وحتى عن

مفهوماتها الفنية، إنّها تعبر عن تجربة ذاتية ثورية، لقوله.

عن الغربة مثلاً:

قل أنا الغريب وأتقن هندسة المنفى¹⁹.

وعلى العموم، فإنّ توظيف أدونيس للمصطلح الصوفي أكسب قصيدته صبغة شعرية متميّزة، لأنّه خرج بهذه الألفاظ المستعملة إلى ساحة الرمز والإشارة، فامتلاّت صوره الشعريّة بالخيال والرؤى، ولا نغالي إن قلنا أنّه ينشد طريق الثورة والهدم²⁰.

5. خاتمة:

بعد التعرّض لموضوع: "المسكوت عنه في الخطاب الشعري الصوفي لدى أدونيس" توصلت إلى مجموعة من النتائج، هي كالآتي:

- المسكوت عنه في الشعر العربي والشعر عمومًا، هو عبارة على دلالات إيجائية، تختفي وراء الرموز التي يستعين بها الشاعر لبناء صوره الشعريّة، لبلوغ هدف معين.
- المسكوت عنه في شعر أدونيس الصوفي، مترتب عن المرجعية الصوفيّة للشاعر المكتسبة من التأثيرين العربي والغربي.
- المسكوت عنه في الشعر الصوفي الأدونيسي منبثق عن رسالة الشعر المرتسمة في مخيال الشاعر.
- المسكوت عنه في الشعر يستلزم بالضرورة غرابة المصطلح والذي يستدعي جهدًا من القارئ المنتج لفك شفرته، ومن هنا تنفتح القراءة ويتعدد التأويل.
- المسكوت عنه في الشعر لدى أدونيس، هو باب من أبواب انفتاح لغة الشاعر، ومسلك لحيته، ومدخل مهمّ إلى عالم الجواني.

7. الهوامش :

¹ عبد القادر الرباعي، طاقة اللغة وتشكّل المعنى، مجلة فصول، مج 14، ع 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب/ صيف 1995، ص 106.

² أدونيس، زمن الشعر، دار العودة، ط2، بيروت، لبنان، ص 151.

- ³ أدونيس، سياسة الشعر، دار الآداب، ط2، بيروت، ص 24.
- ⁴ أدونيس، الثابت والمتحول، صدمة الحداثة، ج3، دط، دار العودة، بيروت، 1982، ص 19.
- ⁵ أدونيس، الثابت والمتحول، ص 57.
- ⁶ رابوية يحياوي، تطبيق المنهج على النص الشعري من خلال الخطاب النقدي العربي، مجلة الخطاب، العدد 01، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة تيزي وزو، ص 149
- ⁷ خالد بلقاسم، أدونيس والخطاب الصوفي، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، 2000، ص 98
- ⁸ الكتاب وتأويل دراسة في شعر أدونيس، عبد العزيز بو مسهولي، مجلة فصول، الأفق الأدونيسي، ص 345
- ⁹ أدونيس، الشعرية العربية، ص 73.
- ¹⁰ أدونيس، ديوان الشعر العربي، ج2، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 1964، ص 10.
- ¹¹ سعيد بن زرقعة، الحداثة في الشعر العربي، أبحاث للترجمة والتوزيع والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 2004، ص 173.
- ¹² ينظر أدونيس، ديوان الشعر العربي، ج22، ص 11.
- ¹³ أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، ص 250
- ¹⁴ أدونيس، قصائد أولى، دار الآداب، طبعة جديدة، بيروت، 1988، ص 70.
- ¹⁵ أدونيس، أغاني مهيار الدمشقي، بدايات للطباعة والنشر، طبعة جديدة، سوريا، 2006، ص 112.
- ¹⁶ أدونيس، المطابقات والأوائل، دار الآداب، بيروت، طبعة جديدة، 1988، ص 131.
- ¹⁷ ينظر: خالد بلقاسم، أدونيس والخطاب الصوفي، ص 62.
- ¹⁸ أدونيس، كتاب التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار، ص 44
- ¹⁹ أدونيس، أبجدية ثانية، ص 52.
- ²⁰ ينظر: إبراهيم منصور، الشعر والتصوف، دار الأمين، مصر، ط1، 1999، ص 262.

8 . قائمة المصادر والمراجع :

- أدونيس، زمن الشعر، دار العودة ، ط2 ، بيروت، لبنان

- أدونيس، سياسة الشعر، دار الآداب، ط2، بيروت.
- أدونيس، الثابت والمتحول، صدمة الحداثة، ج3، دط، دار العودة، بيروت، 1982.
- أدونيس، ديوان الشعر العربي، ج2، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 1964.
- أدونيس، قصائد أولى، دار الآداب، طبعة جديدة، بيروت، 1988.
- أدونيس، أغاني مهيار الدمشقي، بدايات للطباعة والنشر، طبعة جديدة، سوريا، 2006.
- أدونيس، المطابقات والأوائل، دار الآداب، بيروت، طبعة جديدة، 1988.
- إبراهيم منصور، الشعر والتصوف، دار الأمين، مصر، ط1، 1999.
- راوية يحياوي، تطبيق المنهج على النص الشعري من خلال الخطاب النقدي العربي، مجلة الخطاب، العدد 01، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة تيزي وزو.
- عبد القادر الرباعي، طاقة اللغة وتشكّل المعنى، مجلة فصول، مج 14، ع 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب/ صيف 1995.
- عبد العزيز بو مسهولي، الكتاب وتأويل دراسة في شعر أدونيس، مجلة فصول، الأفق الأدوني.سي.
- خالد بلقاسم، أدونيس والخطاب الصوفي، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، 2000.
- سعيد بن زرقا، الحداثة في الشعر العربي، أبحاث للترجمة والتوزيع والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 2004.